الرسائل والأطاريح

أطروحة دكتوراه

جرت فعاليات مناقشة أطروحة الدكتوراه، للباحث حمو بن عيسى الشيهاني، بكلية العلوم الإسلامية، الخروبة، جامعة الجزائر، يوم الاثنين 07 محرم 1432هـ/ 13 ديسمبر 2010م، وهي موسومة بـ: الفكر العقديّ عند الشيخ بيوض، منهجه وأبعاده.

عنوان الأطروحة:

الفكر العقدي عند الشيخ بيوض، منهجه وأبعاده

د/ حمو بن عيسى الشيهاني

جـرت فعاليـات مناقشـة أطروحـة الـدكتوراه، للباحـث حمـو بـن عيسـى الشيهاني، بكلية العلوم الإسـلامية، الخروبة، جامعة الجزائـر، يوم الاثنين 07 محرم 1432هـ/ 13 ديسمبر 2010م، وهي موسومة بـ: **الفكر العقديّ عند الشيخ بيـوض، منهجـه وأبعـاده**. تحت إشـراف الأسـتاذ الـدكتور يوسـف حسـين، وبعـد المناقشة العلنية والمداولات السرية قرّرت اللجنة المكونة من السادة الأساتذة:

أ.د عمار طالبي رئيسًا،

وأ.د يوسف حسين مقرّرًا،

وأ.د عمار جيدل عضوًا،

و د. محمد يعيش عضوًا،

قـرّرت مـنحَ الطالـب الباحـث درجـة الـدكتوراه في العلـوم الإسـلامية، بتقـدير: **مشرّف جدًّا**.

تتناول الأطروحة دراسـة الفكـر العقديّ عنـد الشـيخ إبـراهيم بن عمـر بيّـوض- رائد الحـركة الإصلاحية بالجنوب الجزائري وأحد مؤسّسـي جمعية العلماء المسـلمين الجزائـريّين- مـن خـلال منهجـه في عـرض العقيـدة وأبعادهـا النفسـية والسـلوكية المتجلّيّة في مجالات حركته الإصلاحيّة؛ وهي مقسّمة إلى المحاور الآتية:

أوّلاً: منهج الاستدلال بالنصّ العقديّ

01- تنـوّعت مصـادر الشـيخ بيّـوض فِـي العقيـدة وتعـدّدت مشـاربها، فكـان يسـتقي مـن الـتراث القـديم والحـديث، ويـنتقي مـن كتـب المدرسـة الإباضـية

وغيرها، إلاّ أنّ مصدره الأساس هو كتاب الله تعالى القيِّم على ما سواه، فكان يحذِّر أن يشكّل التراثُ البشريُّ حجابًا بين العبدِ وفهمِ مراد الله من كلامه.

02- تعامل الشيخ بيّوض مع التراث العقديّ بإيجابية، فلم يُلغه كليةً ويحرم نفسه من تجربة بشرية طويلة ومعرفة تراكمية، ولم يخلع عليه هالة من القداسة فيحجبه عن استبصار الحقّ والصدع به، بل اعتبره ثمرة جهد بشريّ يصيب ويخطئ، فأخضعه للنقد البنّاء، محتكمًا إلى كتاب الله والسنة النبويّة الصحيحة؛ ومن نتائج هذا النقد ردُّ الروايات الإسرائيلية المخالفة لأصول الدين، ولا يشفع فيها شهرتها في التراث الإسلاميّ ولا ورودها في كتب الحديث الصحاح.

03- اهتمام الشيخ بيّوض بأسلوب التفسير الموضوعيّ أكسبه منهجًا يتناسق والمقاصدَ العامّة للدين، تتجلّى أبعادُه في:

أ- الاستفادة من التراث الفكريّ الإسلاميّ برؤية نقدية، بعرضه عَلَى صريح الكتاب وصحيح السنة.

ب- تكوين شخصية المسلم السويّة، المحصّنة من الانفصام بين المعتقد والسلوك.

04- تفسير القرآن بالسنة باعتبارها مبيِّنة لمجمل القرآن.

05- يعرض الشيخ بيّوض الحديث النبويّ على محكمات القرآن، ففي حالةِ التعارض الظاهريّ يحاولُ تأويلَ الحديثِ ليتوافقَ مع مقاصد القرآن العامة وما عُلم من الدين بالضرورة، فإن استحال ذلك، يحكم بوجود التناقض المعنوي (الحقيقي) بين النصّين ويردُّ الرواية الحديثية، لاستحالة أن يكذِّب القرآنَ نبيءُ القرآن.

06- يشترط الشيخ بيّوض فِي الحديث- للاستدلال به فِي مسائل الاعتقاد- بلوغَ درجة التواتر، لأنَّ العقيدة لا تبنى إلاَّ عَلَى اليقين، الذي تفيده نصوص القرآن والسنة المتواترة؛ ولهذا المنهج أبعاد منها:

أ- ضبط مسائل الاعتقاد.

ب- السلامة من اعتقاد خلاف مراد الله تعالى.

ج- تحقيق وحدة الأمّة الإسلامية، بعدم قطع عذر المخالف.

ثانيًا: العقل والتأويل:

01- العقلُ من أشدّ أعوان الدين، إلا أنَّ له مجالاً محدودًا، يعدّ إعمالَه خارجَه رجمًا بالغيب، مثل الخوض فِي مسائل الغيب، التي لا تدرَك إلاَّ بالنصّ الصحيح، ومنهج الشيخ بيّوض فيها هو الوقوف عند حدود ما دلّ عليه النصّ؛ وكان ينقد المفسرين والرواة الذين يستطردون فِي إيراد تفاصيل معتمدين فيها عَلَى عقولهم أو عَلَى نقول بشرية للإسرائيليات فيها حظٌّ وافر.

02- يسلك الشيخ بيّوض لفهم النصّ مستوياتٍ ثلاثة:

أ- الأخذ بظاهر النصّ، وَهوَ الأصلُ، إلاَّ إذا أفضى ذَلكَ إِلَى محذور يستوجب الصرف عنه.

ب- تأويل اللفظ إِلَى معنىً خفيّ تطمئن إليه النفس، مع مراعاة ضوابط التأويل، وعدم القطع بنتيجته لأنّ علم حقيقته عند الله تعالى.

ج- تفويض الأمر إِلَى الله عزّ وجَلَّ.

03- بما أنَّ الشيخ بيّوض يرى أَنَّ الأصل هو التمسّك بظاهر النصّ ما أمكن ذلك، فإنَّه لم يفتح باب التأويل عَلَى مصراعيه ولم يسايره إِلَى منتهاه، بل كان يلجأ إليه عندما تدعو إليه دواعيه، وتتوفّر فيه ضوابطه:

أوّلاً: دواعي التأويل:

ليس التأويل- عند الشيخ بيّوض- ترفًا فكريًّا ولا تكلّفًا فِي توجيه النصوص ولَيِّ أعناقها لنصرة مذهب أو فكرة، إنما يكون الدافع إليه تحقيق غايات ضرورية لا يتمّ التوصّل إليها إلاَّ عن طريق التأويل، منها:

أ- تنزيه الباري عزّ وجَلَّ.

ب- مراعاة تناسق النصوص القرآنية والحديثية.

ثانيًا: ضوابط التأويل

أ- ردّ المتشابه إِلَى محكمات التنزيل.

ب- الجمع بين النصوص الواردة فِي الموضوع الواحد، ما دامت الشريعة الغراء، بوحييها الكتاب والسنة، صدرت من عند الله العليم الخبير، فإن نصوصها تتعاضد ويفسر بعضها بعضًا.

ج- الانضباط بقانون اللسان العربيّ، لأنَّ الشرع نزل به ونصوصه تفهم بواسطته.

د- اعتقاد ظنيّة نتائج التأويل، بما أنَّ النصوص المتشابهة ظنية الدلالة، لاحتمالها أكثر من وجه، فإنَّ تأويلها، بترجيح أحد وجوهها، لا يرفعها إِلَى مرتبة القطع بدلالتها، لأنَّ حقيقة المتشابه لا يعلمها إِلاَّ اللّه وحده.

04- بما أنَّ ما ينتهي إليه التأويل من نتائج يكون ظنيَّ الدلالة، فإنَّ الشيخ بيّوض يعذر المتأوِّل المخالف فِي التأويل الملتزم بضوابطه.

05- يصنّف الشيخ بيّوض الحديث عن شؤون اللّه الخاصة إلى قسمين:

أ- ما لم يخبرنا اللّه به، وموقفه معه الكفُّ عن البحث فيه أصلاً وتفويض الأمر فيه إلى اللّه.

ب – ما أخبرنا اللّه به، وينهج معه مسلك الاجتهاد قصدَ الوصول إِلَى تأويل صحيح تطمئن إليه النفسُ، وإلاّ فيَلجَأ إِلَى التفويض.

ثالثا: سِماتُ منهج الشيخ بيّوض العقديّ

اِجتهد الشيخ بيّوض على العودة إلى المنهج القرآنيّ في إثبات العقيدة وتركيزها في النفوس، فعمل على تيسير عَرضها، وتنقيتها من الإضافات التي تعلّقت بها عبر العصور بسبب الاختلافات المذهبية والسياسية، فهذا المنهج- في بساطته- أكثر فعالية من مناهج المتكلمين، لما له من أبعاد تتجلّى في تزكية النفوس وانضباط السلوك؛ ويتميّز هذا المنهج بخصائص، منها:

01- **الشمولية:** المتجلِّية في تكامل عناصر الإيمان، وفي توسيع مقتضياته لتشمل مناحي حياة الإنسان.

02- **الواقعية:** أ- منهجًا: مخاطبة الناس بما يفهمون.

ب- موضوعًا: التركيز على تناول المواضيع المرتبطة بحياة الناس ومعاناتهم اليومية.

03- **النظرة المقاصدية:** تتجلَّى في نقاط منها: الفكر الإصلاحيّ، ومراعاة مبدأ تحقيق الوحدة الإسلامية، وتحديد مسائل الاعتقاد وإخراج ما ليس منها وعذر المخالف فيها.

04- **التحرّر من التعصّب المذهبيّ:** يتّضح ذلك من خلال: نبذ التقليد، ونقد تراث مذهبه الإباضيّ وتثمين مواقف أيمة المذاهب الإسلامية.

رابعًا: أصول الإيمان وأبعادها

01- الدعوة في أصل الأسماء والصفات إلى التمسُّك بمنهج سلَف الأمّة من الصحابة والتابعين، واجتناب الخوض فِي محاولة إدراك حقيقة الصفات، مثل علاقتها بالذات؛ ولهذا المنهج أبعادٌ، منها:

أ- سلامة المعتقد، لأنَّ العقيدة لا تبنى إلا على الدليل القطعيّ، وهو ما تفتقر إليه هذه التفاصيل.

ب- تقوية براهين الإيمان فِي القلب تكون بالمنهج القرآنيّ الفاعل، وضرب الشيخ بيّوض مثالا بإيمان الأمهات الصالحات المشهود لهن بقوّة التمسّك بالدين، مع استغنائهنّ التامّ عن معرفة هذه التعقيدات الكلامية.

ج- المحافظة على الوحدة الإسلامية، لأنّ إثارة هذه القضايا من أقوى أسباب توسيع شقّة الخلاف المذهبيّ.

02- إبراز مقاصدِ القرآن من إثبات الأسماء والصفات، وأبعادِها التي هي أبعد ما يكون عن الجدل الذهنيّ، الذي عرف به منهج المتكلمين الذي أخمد فاعلية العقيدة، فيرى الشيخ بيّوض أنّ استحضار معاني الأسماء الحسنى فِي جميع الأحوال سببٌ قويّ لتزكية النفس والاستقامة، إلاَّ أنَّ فهمَها إن اعتراه خللٌ، كأن تُوَجَّه تأويلاً غير مستجيب لضوابطه، أسفرت عنه آثار سلبية في التصوّر والسلوك.

03- ردُّ ما يتناقله الرواة من تفاصيلَ فِي أمور غيبية كتحديد حجم أجنحة الملائكة ولونها، ودقائق تفاصيل حياة الجنّ وجزئيات الصُّور الذي ينفخ فيه، وغيرها ممّا لم يثبت فيها نصّ قطعيّ، ويرى الشيخ بيّوض أَنَّ أكثرها من الإسرائيليات؛ وللوقوف- فِي مسائل الغيب واليوم الآخر- عند حدود النصوص القطعية أبعاده المتمثّلة فِي:

أ- السلامة من اعتقاد خلاف مراد الله سبحانه وتعالى، ولو علم الله فِي هذه التفاصيل خيرًا لأخبرنا بها.

ب- إفراغُ الجهد وتوجيهُ الهمم إِلى العمل للآخرة والإعداد لها.

04- الكبائر لا تُكفّر إِلاَّ بالتوبة، فمن مات مصرًّا عليها فمصيره النار، ولا تنفعه شفاعة الشافعين.

05- اليقين باليوم الآخر تتجلّى أبعادُه في الاستقامة على الطريقة، والمسابقة إلى الخيرات رغبًا ورهبًا، فالمسلمون جميعًا يعلمون بالبعث والحساب ولكنَّ واقعهم يشهد انحرافات فِي العبادات والمعاملات، فهي مؤشرات دالّة على أنّ الخلل حاصل فِي الشكّ فِي هذا اليوم وعدم اليقين به.

06- اعتقاد حقّ الشفاعة لكل متلفّظ بكلمة التوحيد يبرّر به الخطاؤون ارتكاب المعاصي وإصرارَهم عليها، وعدمَ مجاهدة أنفسهم فِي سبيل التوبة واتّباعِ رضوان الله الذي تنال به الشفاعة.

07- إذا اعتبر الإيمان بالله واليوم الآخرة السبب الفعّال فِي استقامة سلوك العبد، فإن سرّ هذه الاستقامة ثمرة الإيمان بسرمديّة مصير العباد في إحدى الدارين: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الشورى:07) لا سيَما اعتقادَ خلود أهل الكبائر فِي النار؛ والانحرافاتُ التي طالت حياة المسلمين الخاصة والعامة سببُها الرئيسُ الغفلةُ عن استحضار الخلود في الدار الآخرة، فنعيمها خيرٌ وأبقى من زخرف الحياة الدنيا وشهواتها، وجحيمها أشدّ وأبقى من مصائب الدنيا ومشكلاتها.

08- تعامل الشيخ بيّوض مع الآراء المخالفة فِي مسألة القدر بطرائقَ متفاوتة، فقد جاء ردّه علَى المعتزلة مختصرًا مبيّنًا زلّتَهم مع الإشارة إلى حُسن قصدهم في نفي نسبة فعل العبد إلى اللّه، وهو تنزيهه عن خَلق القبيح، وبالمقابل جاء ردُّه علَى المجبرةِ مفصّلاً فِي مواضع عديدة وأساليبَ متنوعةٍ، والسببُ- فِي نظري- أَنَّ نقده لم يكن لأجل صناعة الردود، بل قصده علاج قضايا المسلمين الراهنة، فموقف المعتزلة يشبه البحث التاريخيَّ، ولكنَّ الفكر الجبريّ لا يزال يشكّل علّةَ المسلمين الصارفةَ عن الالتزامِ الشرعيّ والانطلاقِ الحضاريِّ، ففصّل الشيخ بيانَ تهافت هذا الفكر وخطورة أبعاده.

09- اللّه غفّار لمن تاب إليه وأناب، ويرى الشيخ أنَّ الكبائر لا تكفّر إلا بالتوبة، وأنَّ أرجى آية فِي القرآن إن لم تكن دعوةً للمسرفين للتوبة والإنابة فهي تحريضٌ لهم عَلَى المعاصي والتمرّد عَلَى شرع اللّه، مشيرًا إلى الحكمة من ختم السياق بذكر العذاب، منبّهًا إلى وجوب اتّقاء ذَلكَ العذاب بالتوبة إِلَى اللّه والاستقامة والمسابقة إِلَى مغفرة اللّه وجنّاته، فهذا هو مقصد البيان الإلهيّ من آيات الوعد والوعيد.

10- اِتّسم منهج الشيخ بيّوض فِي تناول مسألة الولاية والبراءة بالأصالة والفاعليّة، حيث أصّل لتوسيع نطاق الوَلاية ليشمل الصالحين من الأمّة الإسلامية جمعاء، وترجم موقفه إلى مشاريع ميدانية، وموازاةً لذلك تمسّك بمبدإ البراءة الشخصية ونفّذَه على القريب والبعيد والشريف والوضيع، فسَمَا بذلك من دائرة المذهبية الضيّقة إلى رحابة الإسلام، ومن نطاق الكلام إلى اقتحام عقبات العمل والاستقامة، معتقدًا أنَّ ذلك من مقتضيات الإيمان.

خامسًا: مجالات الإصلاح وأبعادها الإيمانية

01- إذا كان التغيير النفسيّ ضرورة لكلّ نهضة ناجحة فإنَّ الإيمان هو الذي يهيّئ النفوس لتقبَل المبادئ الخيّرة، وتتأهّل للانضباط والعمل، لذلك اجتهد الشيخ بيّوض على إصلاح ما طرأ على حياة الناس من مظاهر الشرك، محافظةً علَى صفاء العقيدة وحيويتها لتتمكّن من ضبط السلوك وإصلاح الفرد

والمجتمع، وحرص على العلاج الجذريّ للقضايا الحياتية، بإحكام صلتها بأصولها الإيمانيّة.

02- تأسيس الشيخ بيّوض معهده الثانويّ "معهد الحياة" على قاعدة إيمانية تتجلّى فِي العمل عَلَى نشر العلم النافع الذي تزدهر به الحياة، وتحصلُ به النجاةُ ونيلُ رضوان اللّه تعالى، كما يشكّل تأسيس المعهد، في فترة الاستعمار، حصنًا للعقيدة ورباطًا لمواجهة الزحف الصليبيّ.

03- تمسّك الشيخ بيّوض بالمدرسة الحرّة، ودعا إلى التعليم في المدارس الفرنسية حين كان المجتمع يقاطعها، ولهذا الموقف أبعاد عقديّة تتمثّل فِي عدم حرمان ناشئة الإسلام من العلوم المادية والحياتية، إضافةً إِلَى رأس المال المتمثّل فِي الحصانة الإيمانية والتكوين الشرعيّ، فبذلك تتوازن شخصية المسلم ويتأهّل لحسن الاستخلاف.

04- من ثمرات حركة الشيخ بيّوض الإصلاحية تكوين "المجتمع المسجديّ"، الذي تتعلّق قلوب أفراده ببيت اللّه، وترتبط به جميع مؤسساته، ويتجلّى ذلك من خلال المظاهر الآتية:

أ- عمارته بالذكر والصلاة، ومراعاةً لهذا المقصد، حرص الشيخ بيّوض على أن يكون المعهد بجوار المسجد، وعَلَى الإبقاء على (المَحَاضِرِ).

ب- عمارته بتشييد بنائه، حيث يلاحظ تسابق الناس وتزاحمهم فِي الأعمال التطوعية، ومنافسة المحسنين في التبرّع سرًّا وعلانيةً.

ج- الاستجابة الطوعية الفورية لنداءات المسجد وتوجيهاته في شؤون الدين والحياة.

05- من أسباب نجاح الشيخ بيّوض في تكوين المجتمع المسجديّ إحكام صلة هيئاته بمرجعيتها الإيمانية فأقنع الأمةَ أنَّ سلطة المسجد- مثلاً- سلطة شرعية، وما تصدر هيئة العزابة من نظم وتعاليم ملزم لأفراد المجتمع، وأنَّ هذه النظم تمثّل حصنَ الدين، يعدُّ المتفلّت منها متعدّيًا حدودَ اللّه التي نهى عن تعدّيها بل عن قربها، لأنَّ النظم الاجتماعية المستنبطة من الأصول الشرعية، تصبح حدودًا شرعية وليست مجرّد تقاليدَ قوميّةٍ.

06- صحّح الشيخ بيّوض النظرة الشائعة نحو العشيرة، مبيّنًا أنَّ نظامها لم يتأسّس عَلَى عصبيّة، ودعا إلى تفعيل دَورها لتكون وسيلة تعارف وتعاون فتتكفّل بشؤون أبنائها وتتعاون من أجل الصالح العامّ، ومما أصَّل به دعوته إلى تفعيل دور العشيرة قولُه تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ (الشعراء: 214) حيث إنه لم يحصر معنى نذارة الأقربين على الدعوة والتذكير، بل وسعه ليشمل إصلاح ذات البين وتدبير أمور الضعفة كالتَّمدرس والتزويج.

07- دعا الشيخ بيّوض إلى إنشاء الشركات الاقتصادية الإسلامية لإنقاذ المسلمين من استغلال الشركات الفرنسية واليهودية الاستعمارية واستبدادها، وأضاف- إلى دعوته إلى إيجاد البديل الإسلامي المنافِس- خطوةً أخرى، وهي القدوة العملية المتمثلة في إسهاماته الميدانية فِي إنشاء الشركات الضرورية التي تستعين بها الأمة فِي نهضتها، وبيّن ضرورة تطوير أساليب التجارة، ووجّه ثلّة من الشباب إلى التكوّن فِي بعض المهن التي تحتاج إليها المدينة، كما دعا إلى تولّي الوظائف الحكومية فِي ظلّ الاحتلال الصليبيّ، لمقصد نصرة الدين ودفع الضررِ عن المسلمين.

08- سياسة الشيخ بيّوض مع المستعمر في مختلف مراحله بدءًا من رفض التجنيد الإجباريّ، ومرابطته في المسجد والمعهد من أجل إعداد أجيال من المواطنين الصالحين والمثقفين الفاعلين، وتحريضًا للمؤمنين على النضال والقتال، وقيامًا بالدور التاريخيّ فِي إبطال مؤامرات المستعمر لفصل الصحراء عن الشمال... كلّ ذلك ينطلق من القاعدة الإيمانية التي من دعائمها أصل إفراد الله بالحاكمية، ومبدأ الوَلاية والبراءة الذي يقتضي حبّ المسلمين وبغض الكافرين ومحاربة المعتدين.

09- لم تكن جهود الشيخ بيّوض محصورة عَلَى وادي ميزاب والوطن الجزائريّ بل دفعه واجبه الإيمانيّ إلى الاهتمام بقضايا كافّة المسلمين فِي العالم، تدلّ علَى ذلك عضويته فِي "لجنة إغاثة فلسطين" وكونه من بين الأربعة الممضين علَى برقيات ورسائل التأييد، باسم اللجنة الجزائرية الفلسطينية، لقضية فلسطين فِي الجامعة العربية.

10- استثمر الشيخ بيّوض الطاقة الإيمانية فاتخذها منطلقًا لحركته الإصلاحية سالكًا فِي ذلك اتجاهين:

النصّ ↔ الواقع

أ- الحرص على تنزيل النصّ العقديّ على الواقع المعيش.

ب- علاج قضايا العصر المختلفة بإحكام صلتها بالأصول الإيمانية، فيهتدي- بهذه الطريقة- إلى إيجاد حلول جذرية لها، لأنَّ سلوك الإنسان مرهون بما يضمره من تصوّر واعتقاد.

بعد هذا البيان يتأكّد القول بأَنَّ **حركة الشيخ بيّوض الإصلاحيّة الشاملة لمختلِف مجالات الحياة هي ثمرة فكره العقديّ الحركيّ الوسطيّ.**